الرومانتيكية فى الأدب الصوفى

للأستاذ أحمد عوض الله
المدرس بالأزهر

ظل العالم الغربى مقيداً بقيود أدبية جعلته صريع التقاليدو العادات السائدة فالأدباء والشعراء ملتزمون بها لا يحيدون عنها ولا كان جزاؤهم التهكم من المجتمع .

وليس معنى هذا أن أدبهم فى تلك الفترة كان ضعيفاً أو متهافتاً فتلك ناحية أخرى من نواحى البحث لا يمكن التعرض لها فى هذا المجال :

وقد أطلق الأدباء والفقهاء اسم « الأدب الكلاسيكى » على هذا النحو من الانفعالات والمشاعر المقيدة بنظام البيئة وقانون المجتمع ولم يأت القرن الثامن عشر الميلادى حتى ظهرت فكرة جديدة فى الأدب الغربى كان هدفها تطوير الأدب والخروج به على التقاليد والعادات السائدة والانطلاق بالعاطفة الإنسانية حيث تسبح فى مجالاتها المختلفة من الحب والألم والرحمة . والحزن .. الخ.

وأطلقوا على هذا التطور اسم « الرومانتيكية » ويمتد معنى هذه الكلمة إلى ما يشمل شبوب العاطفة والاستسلام للشاعر والاضطراب النفسى والفردية والذاتية .

ويفخر الغربيون لأنهم أتوا بأدب جديد كما يظنون ونسوا أن الأدب الصوفى ملىء بالمشاعر الإنسانية والعواطف المشبوبة .

وتعال معى فى رحاب هذا الأدب حيث ترتفع روحك فى سماء الأخيلة الجميلة فترى الحقائق واضحة جلية قد أسفر عنها نور الله وشفافية النفس نعم . تعال معى فى ذلك العالم الخالد حيث تمتزج الدموع بالذكريات وينبع الإلهام الإلهى من قلبك الرطب...

وتذوب معانى الألم فى نور الحقيقة وتتدافع مباهج اللقاء حيث تنحسر ظلمات الأحزان ...

تحلل ما استطعت من كل القيود التى تحول بينك وبين عاطفتك وانتقل بحبك من الفناء إلى الخلود حيث تجد السماء مصغية لأنغامك الجميلة وحبك الطاهر ....

طف بخيالك فى زوايا المعرفة وتنقل به فى ملكوت الله الواسع العريض وتأمل هذا العالم السابح فى نور الله يرى مايروعك ..

أفراح ، آلام ، حب ، رحمة ، شرق وجد ، نور ، إلهام ، فضائل

هذا هو الأدب الصوفى فى جملته ....

وسنتناول فى هذا البحث منهج كل من الأدب الرماونتيكى والأدب الصوفى فى المسائل التى اشترك فيها كل من الأدبين لنبين بطريق المقارنة أى الأدبين أبعد أثراً وأعمق غورا ...

على أنه يمكن القول بأن الأدب الرومانتيكى فى الغرب قد تأثر بالأدب الصوفى فى الشرق وتكون المسألة بهذا الاعتبار ناحية من نواحى التأثر ، والتأثير وهى ناحية قد تبدو مهمة وسنقتصر فى هذه المقالة على ناحية واحدة من النواحى التى اتفق فيها كل من المذهبين .....

وهذه الناحية هى ناحية الحزن عند كل من الصوفيين والرومانتيكيين

لم يكن الرومانتيكى مرحا ولا متفائلا وإنما كان منقبضاً بسبب إنهيار آماله وبعد المسافة بينه وبين مجتمعه الذى لا يقدر إحساساته ولا ينفعل معه فى عواطفه وآلامه . .

ولذا تراه حزيناً كاسف البال لا يقر له قرار بل إن نفسه لتخلى كالمرجل حيث يشعر بشعوره المرهف أنه لن تتم له سعادة فى هذا الوجود وسنرى ذلك واضحاً فى نصوصهم .

يقول « شاتو بريان » وهو من طلائع الرومانتيكيين الفرنسيين فى كتابه « مذكرات ما وراء القبر » : « فى فترة شبابى الحائر كثيراً ما كنت أتمنى ألا أعيش بعد لحظات سعادتى فكان فى بشائر الفوز درجة من درجات السعادة تدفعنى إلى تمنى الموت » .

والرومانتيكى تشغله الصور الحزينة فيأس لها ويأخذ العبرة منها ...

يقول بيرون : « قد يمكن تحمل الوجود » .

وقد تتخذ الجذور العميقة للحياة

والآلام مقاماً وطيداً فى القلوب المحزونة المتجردة . . فتعانى الإبل ما تعانى فى صمت تحت حملها الثقيل ... ويقاسى الذئب آلام الموت فى صمت... لا ينبغى أن تكون هذه الأمثلة قد منحت عبثاً . . . فإذا كانت هذه المخلوقات فى جبلتها الوضيعة أو الوحشية تعانى ما تعانى دون أن تتراجع . . . فأولى بنا أن نتحمل نحن المخلوقين من صلصال . . . .

وانظر إلى هذه الصورة البائسة التى صورها ألفريد دى فينى لذئب يضرب برصاص البنادق وتنفذ فى جبينه السهام دون أن يتلوى ينظر الذئب إلينا ثم يرقد ودون أن يلقى بالاً إلى أن يعرف كيف هلك . أخذ يلعن ما انتشر على فمه من دم ثم أقفل عينيه وقضى نحبه دون أن يلقى صيحة . . . وا أسفا . . لقد فكرت فأدركنى الخجل فما أضعفنا نحن الناس على الرغم من اسمنا العظيم » .

هذه ناحية الحزن عند الرومانسيين أو الرومانتيكيين وهى ناحية تدل على شفافية نفوسهم فيما يتصل بالنواحى الإنسانية .

ولننتقل الآن إلى الأدب الصوفى لنرى فى ذلك الفيض ظاهرة الحزن عند هؤلاء القوم ثم لنرى كيف انتفع الصوفيين بهذه الظاهرة أكثر من سواهم .

وعاطفة الحزن وإن كانت فى مظهرها كئيبة بئيسة إلا أنها تحمل فى طياتها معانى النفس الإنسانية الرقراقة التى تفيض بالحنان والرحمة والدموع دائماً لا تفيض إلا من قلب حساس ينفعل مع آلام البؤساء والمحرومين ويعطف على اليتامى والعاجزين .

ويهمنا هنا أن نورد لك صورة حزينة صدرها السعدى فى كتابه « بستان » لطفل يتيم ، يقول :

ألق ظلك على اليتيم . انفض غباره . اقتلع الشوكة من جسمه . . . . ! !

أنت لا تعرف مدى ما حل به حتى صار بائساً كاسف البال . وهل تبقى الشجرة قط مورقة مخضرة بدون جذور . . . ! !

حينما ترى اليتيم منكس الرأس فلا تضع قبلة على وجه ابنك . . . ! !

إذا بكى اليتيم فمن يشترى له لعبة . وإذا حل به الغضب فمن يحمل عبء غضبه . . . ! !

كن على حذر حتى لا يبكى اليتيم لأن العرش العظيم يهز حين يبكى ... ! !

امسح دمعه من عينه برحمة وانفض

التراب من وجهه بشفقة . . . !!

إذا ذهب ظله من فوق رأسه (مات أبوه) فتول أنت تربيته فى ظلك وكنفك .

قد كان لى رأس متوج حينما وضعت رأسى فى حجر أبى لو وقعت بعوضة على جسمى لاهتز كثير من الناس أما الآن وقد فقدت أبى . فلو حملونى إلى السجن أسيراً ما وجد شخص واحد نصيراً لى من أصدقائى ...!!

ألست معى فى أن الذوق الصوفى قد بلغ نهايته حينما قرأت : حينما ترى اليتيم منكس الرأس فلا تضع قبلة على وجه ابنك .

هذه صورة حزينة أوردتها شاهداً على طبيعة النفس المتصوفة التى يحو لها جو الحزن ويلذلها أن تعيش فيه وتنفعل به ومع ذلك فهى تستعلى بهذه العاطفة القوية لتخلق منها أدباً رفيعاً ينبثق فى القلوب فيهدهد من قسوتها ويكفكف من غلظتها فإذا الرحمة تعم الأرض كما يعم النور السماء ...

على أن هذا الحزن يبدو أنه وليد العزلة التامة التى ينفرغ فيها الإنسان للتأمل والتفكير ويسمو بهذا التأمل إلى درجات قد يعجز القلم عن تصويرها .

والصوفيون والرومانسيون على السواء تستهويهم العزلة ويطربهم الانفراد لأن نور الله لا يمس قلوبهم إلا فى مثل هذه اللحظات السعيدة :

تقول مدام ذى ستال : « بدوام الصلة بالناس تخبو أضواء العقل ونمحى أصول المروءة ومبادىء السمو . . فالموهبة والحب والخلق هذه الأضواء السماوية لا تتقد إلا فى الخلوة إن حكمة الخالق لا تظهر إلا غامضة فى كل نظم المجتمع التى تعقدت بالأهواء والمصالح فى جميع صورها ولكن الحكمة السامية للخالق الكريم ستجدها فى قلبك وتفهمها فى مظاهر جمال الطبيعة ... بين الله والحب لا أعترف بوسيط سوى الضمير . . »

وهذه رابعة العدوية تنفرد بنفسها عن العالم لتأنس بالله وتجعله منتهى غايتها حتى لتهم به وجداً وشوقاً وحباً لا يعرف أحد كهنه وحقيقته .

اللهم إلا تلك الأرواح الصافية

روى السهر وردى أنها كانت تقول

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحث جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤنسى
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

ووصف يونس بن عبيد الحسن البصرى فقال : كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنما لم تخلق إلا له » .

والصوفيون لهم فى هذا الميدان مقام لا يطاوله مقام ولكننا بصدد دراسة مقارنة تلزمنا أن نقف عند القدر الضرورى لهذه الدراسة .

وإلى أن نلتقى مع الصوفيين والرومانسيين فى ميادين الحب، والرحمة فستجدنا أمام فيض جديد فإلى اللقاء .